ورقة علمية بعنوان

دور الخطاب الديني في تعزيز النزاهة والانتماء

تمهيد: مفهوم الخطاب الديني وأهميته:

يحتل الخطاب الديني في مجتمعاتنا الإسلامية موقعا مهما في التأثير، لا يضاهيه فيه أي خطاب آخر، فهو الذي يصوغ التفكير، ويوجه السلوك العام؛ وذلك لارتباط مجتمعاتنا بالدين؛ ولما يمثله هذا الخطاب من تعبير عن أوامر الدين وأحكامه.

كما أن الخطاب الديني أصبح يعكس صورتنا أمام الأمم والحضارات الأخرى، فمن خلاله تتشكل الانطباعات والتصورات عن أمتنا ودِيننا وثقافتنا.

فعندما نجد خللا في السلوك العام للمواطنين في مجتمعاتنا الإسلامية، وحين تهتز صورة هذه المجتمعات على شاشة الرأي العام العالمي، فذلك يدعونا إلى مراجعة خطابنا الديني، فهو إما أن يكون مسؤولاً عن حصول هذا الواقع السيء، أو مهادناً له مكرساً لوجوده.

كما يجب علينا أن نفرق بين الخطاب الديني والنص الديني، فالأخير هو كل ما ثبت عن الله سبحانه وتعالى وعن رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، أي الكتاب والسنة. فالقرآن الكريم قطعي الثبوت بكل ما بين دفتي المصحف الشريف منزه عن أي زيادة ونقصان، أما السنة الشريفة فهي ما ثبت صحة وروده بالضوابط العلمية المقررة عند فقهاء الأمة.

وهذا النص الديني (الكتاب والسنة) فوق المحاسبة والاتهام، إنه يحكي عن الله تعالى، وعن وحيه الأمين، وعن المصدر المعصوم، ولا يمكن أن يتسرب لقلب مسلم ذرة من الشك في صدقه وقداسته.

أما الخطاب الديني فهو ما يستنبطه ويفهمه الفقيه والعالِم والمفكر من النص الديني، أو من مصادر الاجتهاد والاستنباط المعتمدة.

ويتمثل الخطاب الديني في فتاوى الفقهاء، وكتابات العلماء، وأحاديث الخطباء، وآراء ومواقف القيادات والجهات الدينية.

وهنا لا قداسة ولا عصمة، فالمجتهد قد يصيب وقد يخطئ، فهو يعبّر عن مقدار فهمه وإدراكه، كما وقد يتأثر بمختلف العوامل النفسية والاجتماعية التي تنعكس على آرائه وتصوراته.

فالعلماء والدعاة ورجال الدين لهم دور مهم في مجال مكافحة الفساد والتأثير البالغ في نفوس مقلديهم وأتباعهم ومحبيهم لما يتمتعون به من مكانة اجتماعية يستطيعون من خلالها توصيل ما يريدون إلى الناس وإقناعهم به.

أولا: دور الخطاب الديني في تعزيز النزاهة والانتماء من خلال القدوات والنماذج المشرقة

من أساليب تعزيز النزاهة والانتماء في نفوس الأفراد تسليط الخطاب الديني الضوء على القدوات، فلو نظرنا إلى القرآن الكريم لوجدنا أن بعض الآيات تتحدث عن نقاط ضعف وجوانب سلبية في شخصية الإنسان، لكنها تأتي في سياق توجيهه إلى تجاوزها والسمو عليها عبر مدارج الكمال والرقي.

في المقابل لو استقصينا النماذج البشرية التي قدمها القرآن الكريم في آياته المباركة، لوجدنا أن العدد الأكبر منها هو من الشخصيات العظيمة الصالحة، كالأنبياء والأولياء والمحسنين، بينما ينخفض عدد النماذج المنحرفة الفاسدة كالظلمة والطغاة والمعاندين، هذا على مستوى الحديث عن النماذج، ولعل ذلك يوحي لنا بتفضيل القرآن الكريم لتقديم الإنسان في صورته النبيلة المشرقة. مع الالتفات إلى ما أشار إليه القرآن الكريم من انتشار حالات الغفلة والضعف في أوساط بني البشر.

من هنا يأتي دور الخطاب الديني من خلال ذكر النماذج والقدوات التي كان لها الأثر البالغ في بناء الأفراد والمجتمعات الإسلامية.

ثانياً: دور الخطاب الديني في تعزيز النزاهة والانتماء من خلال التحذير من آفات الفساد والمفسدين.

من الأدوار التي يلعبها الخطاب الديني في تعزيز النزاهة والانتماء في نفوس الأفراد، توعية المواطنين بآفة الفساد والجرائم ومدى مخالفتها للشرائع السماوية وآثارها المدمرة على المجتمعات، فالفساد في أدق عبارة وأوضح إشارة هو: خروج الشيء عما كان عليه من الاعتدال والسلامة، قليلاً كان الخروج أو كثيراً، والمذموم في القرآن يشمل كل ما يخالف الصلاح ويتعارض مع الشرع من قول أو فعل أو اعتقاد، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "كل قول أو عمل يبغضه الله فهو من الفساد".

لذا نرى القرآن الكريم حارب الفساد والمفسدين، يقول الله تعالى: (وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا)؛ أي لا تخربوا الدنيا بمعاصيكم, بعد أن أصلحها الله للطاعات وأصلحها الصالحون؛ فإن المعاصي تفسد الأرض وما عليها, وتفسد الأعمال والأرزاق, كما أن الطاعات تصلح بها أحوال الدنيا والآخرة.

فلا شك أن الفساد ظاهرة تحتاج إلى تضافر كافة الجهود لكبح جماحها وتجفيف منابعها؛ لذلك كان للخطاب الديني دور في الإسهام في بلورة بيئة وطنية نزيهة.

ثالثاً: دور الخطاب الديني في تعزيز النزاهة والانتماء من خلال زرع قيمة مراقبة الله تعالى.

كذلك يعزز الخطاب الديني النزاهة والانتماء من خلال زرع قيمة مراقبة العبد لربه في السر والعلانية في نفوس المواطنين، فما أحوج البشرية اليوم إلى مقام المراقبة، في زمن كثرت فيه وسائل المكر والخديعة، وتعددت فيه وسائل الغش والتزوير، وقلّ فيه الخوف من الله العلي القدير.

فإذا أيقن المواطن أن الله مطلع على سائر أحواله لا يخفى عليه شيء من حاله، يعلم سريرته كما يعلم علانيته، ولا يحجبه ساتر أو مانع من رؤيته مهما استخفى عنه، أوجب له ذلك مراقبة الله في السر وخشيته كمال الخشية، كما فعل النبي يوسف عليه الصلاة والسلام حين راودته امرأة العزيز في كمال غناها وجمالها وهو غلام عندها وفي سن الشهوة، وخلوتهما محكمة بلا رقيب، وهو تحت الوعيد والتهديد، فامتنع وعصمه الله من الفاحشة مع كثرة الدواعي والمهيجات؛ لشدة

مراقبته ربه وقوة يقينه، قال تعالى: (وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ).

فلا شك أن المنافع التي تعود على المسلم عندما يستشعر مراقبة الله في كل وقت وحين كثيرة، ويكفي أنها طريق إلى السعادة في الدارين، وإلى نيل رضا الله- عز وجل، وهي طريق إلى الإحسان في العمل وإتقانه، والله- سبحانه وتعالى- يحب كل من يُتقن عمله ويؤديه على أكمل وجه.

ففي الحديث الشريف الذي ورد عن عائشة- رضي الله عنها- أن رسول الله- صلى الله عليه وسلم- قال: "إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه"، ومن هنا، فإن من يستحضر مراقبة الله لا يغش في عمله ولا يقصر في وظيفته، بل يطمع فيما عند الله بالإتقان، ويخشاه ويستحي منه فلا يغش أبدًا.

وإلى جانب ما ذكرنا من ثمار استشعار مراقبة الله في كل ما نأتي ونذر، هناك بعض المنافع الأخرى التي تعود على المؤمن الحيي الذي يخشى الله ويأبى إغضابه بالإتيان بما نهى عنه وترك ما أمر به، وهذه المنافع هي كالتالي:

- تدفع المؤمن إلى الجد والاجتهاد في طاعة الله والتقرب منه، وتقيه من الوقوع في الفواحش والمنكرات.

- تحيي القلب الميت وتوقظ الضمير من سباته وتحرك دواعي الخير في الإنسان.

- تجعل المسلم لا يقصر في حق الله، فيحافظ على فرائضه وواجباته.

- تمنع المسلم من التجرؤ على محارم الله والإسراف في معصيته، فهو يخشاه لأنه يعلم أنه يراه.

فالمراقبة تجعل المسلم أمينًا، ومن الأمثلة على ذلك أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه نهى عن مذقِ (خَلْط) اللبن بالماء، فخرج ذات ليلة في حواشي المدينة، فإذا بامرأة تقول لابنة لها: ألا تمذقين (تخلطين) اللَّبن، فقالت الجارية: كيف أمذق وقد نهى أمير المؤمنين عن المذق، فقالت الأم: قد مذق النَّاس فامذقي، فما يدري أمير المؤمنين، فقالت الفتاة: إن كان عمر لا يعلم فإله عمر يعلم، ما كنت لأفعله وقد نهى عنه، فوقعت مقالتها من عمر، فلمّا أصبح دعا

عاصما ابنه، فقال: يا بني اذهب إلى موضع كذا وكذا، فاسأل عن الجارية ووصفها له، فذهب عاصم فإذا هي جارية من بني هلال، فقال: له عمر: اذهب يا بني فتزوجها فما أحراها أن تأتي بفارس يسود العرب، فتزوجها عاصم بن عمر، فولدت له أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الْخطاب، فتزوجها عبد العزيز بن مروان بن الحكم، فرزقه الله تعالى منها عمر بن عبد العزيز الخليفة العادل.

فمن يخشى الله لا يخشاه الناس، ومن يستحضر مراقبة الله في السر والعلن لا يحتاج لمن يراقبه من الناس، فالله تعالى أجدر وأحق بالخشية والمراقبة، وهو سبحانه يحب إتقان العمل وتجنب الغش والخديعة بكل صورها وأشكالها، وهذا هو المسلم المحسن الذي يحب الله أن يراه.

رابعاً: دور الخطاب الديني في تعزيز النزاهة والانتماء من خلال زرع قيمة الشفافية.

فبجانب تعزيز قيمة المراقبة، كان لا بد للخطاب الديني أن يركز على قيمة الشفافية التي تعتبر قيمة خلقية ومنهاجا، وهي تعني المكاشفة والوضوح والعدل والبيان بين أفراد المجتمع بغض النظر عن طبيعتهم (موظف أمام مواطن / حاكم أمام محكوم/ حكومة أمام شعب) إذ تعتبر أحد المحركات الأساسية لرؤية سلوكات وتصرف الأطراف مثلها مثل المادة الشفافة التي يمكن من خلالها رؤية تصرفات الآخرين، وهو ما يؤدي إلى زرع الثقة وتقويض الفساد.

فمفهوم الشفافية يشير إلى الوضوح والتبيان والنزاهة في مجالات العمل المختلفة لا سيما منها الإدارية، بحيث تكون المعلومة متاحة بشكل عادي ممّا يؤدي إلى بناء الثقة واكتشاف ثغرات الفساد المختلفة، والشفافية ليست عبارة عن إجراء عملي فقط أو مفهوم، بل هي فلسفة ومنهج يقوم على العلنية والصراحة والانفتاح بما لا يتعارض مع مصالح الدولة والأمة الإسلامية، لذلك فهي تحمل قيمة عالية في ديننا الإسلامي الذي نص عليها من خلال الصدق والأمانة في تعاملات المجتمع اليومية وعلى مختلف الأصعدة بعيداً عن التعتيم والسرية.

فقد اعتبر الإسلام الشفافية قيمة أخلاقية روحية قبل كل شيء يجب أن يتمتع بها الفرد ويتصف بها، مثلها مثل الأمانة والعدل والمساواة، فهي تجعل الفرد يترفع عن خطيئة الناس وخداعهم وتضليلهم، ولقد تركزت تشريعات الشفافية في الإسلام على المدخل الأخلاقي لا على العلاقة

القهرية بين الحاكم والمحكوم أو القانون، فالموظف أو المسؤول في الإسلام منذ القدم يجب أن يعتقد وأن يؤمن بأن الشفافية هي قيمة أخلاقية روحية إسلامية تنبع من الصدق والعدل والأمانة والإخلاص.

خامساً: دور الخطاب الديني في تعزيز النزاهة والانتماء من خلال زرع قيمة المسؤولية.

كما أن الخطاب الديني عزز قيمة المسؤولية في نفوس المواطنين، انطلاقا من حديث النبي صلى الله عليه وسلم: (كلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته، فالإمام على الناس راعٍ ومسئول عن رعيته، والرجل راع في أهل بيته ومسئول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها، والعبد راعٍ في مال سيده ومسئول في رعيته) ، ثم يقول صلى الله عليه وسلم: (ألا فكلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته).

وتعني المسئولية أن يقوم كل مكلف بالأعمال والمهام التي تقتضيها المكانة التي يتبوؤها ، فعلى سبيل المثال؛ رئاسة الدولة مكانة، والأبوة مكانة، والأمومة مكانة، والتدريس مكانة، وكل مكانة مما سبق ذكره تقتضي ممن يتولاها أن يقوم بالأعمال والمهام التي تتطلبها، ويعد الإخلال أو التقصير في أدائها مسئولية تقتضي محاسبته عليه.

فكل إنسان قد عهد الله إليه القيام بمهمة، فهو مسئول عنها أياً كان موقعه ومكانته الاجتماعية أو العلمية أو الاقتصادية أو السياسية، قال تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾.

فالخطاب الديني يبرز أهمية الإسلام في تربية أتباعه على أن يكونوا أفرادا صالحين، يقدرون المسئولية، ويحرصون على أن يؤدي كل واحد منهم عمله بإخلاص وأمانة ونزاهة، وجد ومثابرة، قال تعالى: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

خاتمة:

فأهمية الخطاب الديني تتجلى في التركيز على القيم والبعد الروحي لإيجاد جيل يؤمن بأن قوة المجتمع تكمن في العمل الجاد لاحترام القوانين والأنظمة ونبذ الفساد بكافة أشكاله؛ لأن الفساد مخالف للشرائع السماوية كافة؛ الأمر الذي يمكّن من بناء منظومة اجتماعية مناهضة للفساد.

فتغذية المواطنين بالإيمان والقيم والتعاليم الدينية يؤدي إلى نشر ثقافة النَّزاهة والشفافية ويرسخهما في المجتمع، كما يسهم في المجال الوقائي والتوعوي، الأمر الذي يحد من فرص ارتكاب الفساد وإحباط ممارساته قبل وقوعها.

وبالتالي فإنه يمكننا محاكمة الخطاب الإسلامي المعاصر وتقويمه على ضوء النصوص الدينية، لمعرفة مدى الخلل والقصور الذي يعانيه في مجال الاهتمام بتعزيز النزاهة والتنمية لدى المواطنين.